قراءة في كتاب

"الاتجاه الإسلامي في شعر محمد العيد آل خليفة"
للدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع *.

د. محمد بن سمينة**

أولا ـ المدخل : صدر هذا الكتاب عن دار المعارف الرياض 1406هـ/1986م، وقد مضى ـ كما هو واضح ـ على صدوره حوالي عشرين سنة، وهذه المدة الطويلة التي تفصل بين تاريخ طبع الكتاب، وتاريخ وصوله إلينا واحدة من المشكلات التي تميز طبيعة العلاقة القائمة بين أقطار الأمة العربية الإسلامية بعضها ببعض، وبخاصة في الميدان العلمي والثقافي والإعلامي، كما هي في واقعها العملي اليومي، وليس كما هي في المجال النظري كما تصورها بين مناسبة وأخرى تلك الخطب والمناشير والتوصيات في بعض المؤتمرات والملتقيات واللقاءات ...

وقد ترتب على هذه الظاهرة ما ترتب، مما جعل مسيرة نهضتنا الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية وغيرها، تتعثر في أذيال التخلف والتبعية وما ينشأ عنهما من علل وأدواء. وبالرغم من هذه الحال فقد حاول بعض المثقفين وبعض الأدباء في البلاد العربية الإسلامية أن يتغلبوا على هذه المعوقات ويعملوا على توطيد الصلات التاريخية والثقافية بين الأشقاء في مختلف ديارهم .

---

* أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية.
** أستاذ بجامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر.

ويمكن القول أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا يدخل في هذا الإطار، وقد حاول صاحبه أن يعالج فيه البعد الإسلامي في شعر محمد العيد، وهو من أبرز أغراض شعره، ويصور هذا الغرض ما يقوم عليه تكوين شخصية الشاعر، ونوعية ثقافته، وتوجهاته الفكرية، ومفهومه للرسالة الأدبية، وقد دفعته هذه العوامل إلى أن يوقف نتاجه على عملية النهوض بالوطن والتمكين لأسس بنائه الحضاري، والذود عن قيمه ومقوماته، والتعبير عن قضاياه وتطلعاته، والعمل على تحرره وتقدمه، فجاء شعره نتيجة لذلك، الصوت الصادق المعبر عن آمال أمته، والسجل الأمين لتطورات حركة جهادها، وكان ذلك على امتداد ما يربو من نصف قرن من الزمن.

وتحاول هذه الكلمة أن تعرف بهذا الكتاب، وتعرف من خلال ذلك ببعض المعالم من حياة الشاعر محمد العيد، وبعض الجوانب من شعره وجهاده، وما كان من جهود مؤلف هذا الكتاب في محاولة إبراز ذلك وإجلائه.

ثانيا ـ خطة الكتاب ومحتواه : جاء هذا المصنف في ثماني وعشرين ومائة صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على تمهيد وستة فصول.

تضمن التمهيد لمحة سريعة عن حياة الشاعر وعن ملامح بيئته وتطورات عصره.

وتطرق الفصل الأول إلى المؤثرات المختلفة في حياة الشاعر وشعره، وتحدث الفصل الثاني عن مكانة الشعر الإسلامي في نتاجه، وعالج الفصل الثالث معاني المضمون الإسلامي في شعره، وتركز البحث في الفصل الرابع في موضوع العروبة، وتناول الفصل الخامس ما جاء في شعر محمد العيد عن بعض الشخصيات العربية الإسلامية، وتضمن الفصل السادس والأخير آراء بعض النقاد في شعره وبعض المختارات من شعره. وقد جاءت بنية الكتاب على هذا النحو مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض في انسجام وإحكام.

وقد استطاع المؤلف من خلال ما تضمنته فصول كتابه من تحليل ومعالجة صورة صادقة عن حياة محمد العيد، وعن العوامل المؤثرة فيها وفي شعره، من بيئة تاريخية وسياسية ومؤثرات اجتماعية وثقافية ومن التزام واندماج في حركة النهضة الوطنية، ومواكبة قضايا الأمة، والذود عن تطلعاتها، والدفاع عن قيمها ومقوماتها وحقوقها.

ثالثا ـ الجزائر في آثار الدارسين : ويمكن القول أن هذه العناية التي حاول المؤلف من خلالها أن يعرف بالشاعر وشعره وجهاده، إنما تندرج في إطار اهتمامات الأشقاء في المغرب وفي المشرق بما يتصل ببلدهم الثاني (الجزائر) ماضيا وحاضرا، نظرا لاصطدامها في مطلع العصر الحديث (1830) قبل غيرها من شقيقاتها بنكبة الاحتلال الفرنسي الذي كان غزوا استيطانيا استدماريا حاول أن يدمر كل شيء، ويقضي على كل شيء من مقومات الحياة المادية والمعنوية في الجزائر (عقيدة ولغة، تاريخا وتراثا، حضارة وعمرانا).

ويعود هذا الاهتمام في الواقع من الأشقاء بإخوانهم في الجزائر إلى وقت متقدم من العصر الحديث، ومن ذلك ما كتبه بعض أعلام الإصلاح والفكر والأدب منذ انبثاق فجر النهضة الحديثة في المشرق. ويأتي في مقدمة هؤلاء (محمد عبده، محمد رشيد رضا، شكيب أرسلان، محب الدين الخطيب، محمد كرد علي، زكي مبارك، وغيرهم من رجالات الرعيل الأول من أعلام أمتنا) ومن بين الرعيل الثاني من هؤلاء الأعلام (محمد المبارك، شكري فيصل، محمود شاكر، أنور الجندي، محمد فتحي عثمان، طه الحاجري، محمود قاسم، عائشة عبد الرحمن، ممدوح حقي، أحمد الخطيب، بسام العسلي، محمد عمارة، وغيرهم).

ومن هؤلاء وأولئك من استطاع أن يقترب من الحقيقة من خلال ما رجع إليه من مصادر أصيلة أمينة، فصور بصدق وموضوعية بعض المشاهد من مجريات ما مرت به الجزائر في تاريخها الحديث والمعاصر من أحداث وتطورات، فجاءت بعض كتابات هؤلاء صورة صادقة معبرة عما خاضه الشعب الجزائري من جهاد طوال صراعه مع الغزاة الفرنسيين، وعما سخا به من تضحيات جسام طوال سبع سنوات ويزيد من عمر ثورته الكبرى، ثورة أول نوفمبر المظفرة (1954)، التي استطاع فيها بمدد الله وتوفيقه أن ينتصر على المحتلين ويفتك من بين مخالبهم حريته، ويستعيد سيادته وأصالته.

وإذا كان أولئك الكتاب المتقدمون قد حالفهم التوفيق فيما خطت أقلامهم من كتابات حول الجزائر:تاريخها وحاضرها، نهضتها وثورتها، أدبها وفكرها، أعلامها وأعمالهم، فإن كتابا آخرين من بني جلدتنا أيضا، قد حاولوا أيضا أن يكتبوا عن الجزائر : تدفعهم إلى ذلك ـ مشكورين- عواطفهم الصادقة نحو أشقائهم، تعاطفا معهم ونصرة لهم، وإنها -وأيم الله- لمقاصد نبيلة، إلا أن التوفيق لم يكن حليف هؤلاء في ذلك، لأنهم لم يأخذوا بأسبابه، لاعتمادهم في جمع مادة كتاباتهم من مراجع أجنبية، كانت دوائر الدعاية الاستدمارية هي التي قد حاكت افتراءاتها وأملت أباطيلها، فجاءت محاولاتهم -سامحهم الله وأثابهم على قدر نياتهم- مشوهة، مخالفة للواقع، مجافية للحقيقة، مجانبة للتاريخ، ويأتي في مقدمة كتاب هذا الفريق: طه حسين وكتابته عن الأدب المكتوب بالفرنسية في الجزائر *"الربوة المنسية للكاتب الجزائري مولود فرعون نموذجا"*، والدكتور إبراهيم الكيلاني في كتابه *"أدباء من الجزائر"*، وقد نص الدكتور في هذا الكتاب بالحرف *"أن الأدب الجزائري يكاد يكون كله مكتوبا بالفرنسية لا العربية"*[1]، والدكتورة سعاد

1. ينظر د. إبراهيم الكيلاني : *"أدباء من الجزائر"*، ص 8، دار المعارف القاهرة 1958.

محمد خضر في كتابها "الأدب الجزائري المعاصر". وفي هذا الكتاب الأخير العجب العجاب من الافتراء والبهتان، من مثل قول الدكتورة (فالشعب الجزائري مجموعة من القوميات.. ولسانه مزيج من عدد من اللغات.. وأدبه مجمله وأجمله بالعامية والفرنسية.. ولا حضور فيه واضح للغة العربية (..!!)[1].

وماذا عسى أن يقول المرء أمام هذا الذي يقرؤه في كتب هؤلاء الكتاب؟ فهل أجهد هؤلاء الثلاثة : عميد الأدب العربي، والدكتور الكيلاني، والدكتورة سعاد نفوسهم في البحث، كما فعل غيرهم من الكتاب غير المستلبين عن نص يكون قد كتبه الجزائريون بالحرف العربي تعبيرا عن آمالهم وآلامهم ليعرفوا به إخوانهم في بلاد العروبة والإسلام، ولكن هؤلاء الكتاب أعياهم الجهد وأرهقهم البحث عن ضالتهم هذه، ولكنهم لم يعثروا عليها في كامل أرض الجزائر ؟ لأن الجزائريين ـفيما يتوهم هؤلاء الكتابـ استطاعت فرنسا (دولة الحرية والمدنية والحقوق الإنسانية..!) أن تنزع بمخططات التغريب والتفرنج، وحملات الإكراه والإرهاب حب العربية من قلوبهم، وتصل إلى أهدافها في استلابهم وتغريبهم وتنصيرهم، فغابت العربية من حياتهم وماتت بينهم، وكان ذلك سببا في عقم الجزائر، فلم تنجب لا علماء، ولا مفكرين، ولا أدباء، طوال العصر الحديث، من عهد الأمير عبد القادر بطل المقاومة الوطنية، إلى عهد ابن باديس رائد النهضة الفكرية، ومن عاصر هؤلاء وسار على نهجهم من علماء عاملين، ومجاهدين مخلصين، وأدباء ملتزمين، فكأن هؤلاء الأعلام في زعم أولئك الكتاب ما صمدوا طوال فترة الاحتلال التي دامت قرنا وثلثا في وجه تلك المخططات التغريبية، وما تصدوا لتلك الحملات القمعية، وما نجحوا في إفشالها، وما حافظوا على العربية لسانهم ولغة قرآنهم، وما عملوا على نشر

---

1. ينظر د. سعاد محمد خضر :*"الأدب الجزائري المعاصر"* ، ص 233 – المكتبة العصرية صيداء لبنان 1967.

لغتهم في جميع أرجاء وطنهم: أريافا وبوادي، قرى وحواضر، وما كتبوا أصدق الآثار بحروفها، وما عزفوا أجمل الألحان بأنغامها.

ومهما يكن من وجوه هذا التقصير والقصور، وهذا الإغفال والجحود من كتاب هذا الفريق لجهود إخوانهم في الجزائر، فإن السبب في كل ذلك، إنما مرده إلى ما كانت سلطات الاحتلال تحرص على إقامته من حواجز وموانع بين الشعب الجزائري، وبين أشقائه للحيلولة بينه وبين ما يتطلع إليه من توطيد أسباب صلته بهم، والاحتكاك بما يرسون دعائمه من بنيان حركة اجتماعية وسياسية، ومشروع نهضة فكرية وأدبية، بهدف الإفادة منه بما يساعده في مسيرة نهضته وحركة جهاده .

رابعا ـ موازنة وتعليل : إن الذي يوازن بين صنيع مؤلف الكتاب موضوع هذه الدراسة، وبين صنيع كتاب الفريقين السابقين: فريق أولئك الكتاب الأوفياء لانتمائهم الحضاري، وفريق هؤلاء الكتاب المستلبين يدرك أن صنيع صاحب الكتاب يلتقي مع أولئك الكتاب المتأصلين في النظرة وفي الموقف، ويفترق مع أولئك الكتاب المستلبين، ومن حلب في إنائهم من أمثالهم في النظرة وفي الموقف. ولعل من بين ما ساعد مؤلف هذا الكتاب على موقفه السليم: قيامه بالارتحال إلى الجزائر واندماجه بعض الوقت في مجريات واقعها، واتصاله ببعض من ساهموا في بناء أسس نهضتها وصنع أحداث ثورتها وقيادة مواكبها، ووقوفه على بعض آثار ما دبجته أقلام بعض رواد الحركة الوطنية بوجهيها الحضاري والسياسي، واطلاعه على كتابات بعض من جاء من بعد أولئك الرواد من الدارسين المعاصرين.

وقد عرف المؤلف كيف يفيد من تلك الآثار بنوعيها ، ويكاد يقتصر عليها في جمع مادة بحثه دون أن يرجع إلى غيرها ، مما حاكت خيوطه تلك الأقلام الاستدمارية المغرضة من افتراءات وأراجيف وأكاذيب..

وقد استطاع المؤلف بهذه الخطة التي بنى عليها أسس عمله، وبذلكم المنهج الذي سار على هديه في تناول محاور موضوعه، أن يقترب من وجه الصواب في معالجة جوانب النهضة، وأن ينصف صانعيها من الأعلام العاملين والمجاهدين الميامين.

ويتجلى هذا الذي حالف المؤلف من وجوه التوفيق في جملة من العناصر: في المنطلقات التي انطلق منها، وفي الرؤية التي نظر من خلالها إلى جوانب موضوعه، وفي طرق المعالجة، وفي منهج التحليل.

خامساـ وجوه الاستدراك على مؤلف الكتاب: يمكن القول أن صاحب الكتاب قد استطاع أن يقترب من وجه الحقيقة في مجمل آرائه، ولكنه مع ذلك قد فاته شيء من وجوه التحقيق والتوثيق في بعض الكليات، وفي بعض الجزئيات المتصلة بحياة الشاعر وشعره، وبملابسات بيئته وظروف مجتمعه وببعض عوامل تكوينه وبعض القضايا العامة. ويمكن القول أن هذا الذي يسجل على عمل المؤلف قد يسجل على كل من لم تتوفر له أسباب المشاركة الميدانية الحية لظروف البيئة العامة التي كان الشاعر يحيا في أجوائها ويجاهد في جنباتها ويتعامل مع أحداثها. ويمكن أن نجمل ما قد يسجل على هذا العمل في جملة من الملاحظ نوردها حسب ورودها في مواطنها من الكتاب :

1. جاء لقب الشاعر في عنوان الكتاب: محمد العيد (الخليفة)، وما سمعنا من أحد من معاصريه ودارسيه من قال بهذه (الخليفة)، وما رأيناها في مرجع من المراجع التي عنيت بدراسة الشاعر وشعره.

وإذن فإن المعلوم والمعمول به والشائع في جميع الأوساط فيما يتعلق بلقبه أنه (آل خليفة) وليس (الخليفة).

2. يذكر المؤلف أن الشاعر محمد العيد قد آثر بعد الاستقلال (1962) (الانزواء في بسكرة والانقطاع للعبادة إلى أن توفي) ص : 13. ويمكن أن يفهم المتلقي من هذا القول أن محمد العيد انعزل في أعقاب الاستقلال عن الحياة والناس وسكت عن قول الشعر، وهذا مخالف للواقع، ذلك أن محمد العيد قد قضى أيامه طوال سنوات الثورة في إقامته الإجبارية يعاني من ضيق العزلة ومن عناء الأسر، ولكنه استأنف ـبعد تحرير الوطن من ربقة الاحتلالـ جهاده ونشاطه بقوة، ونظم في ميدان العطاء الأدبي نتاجا غزيرا من الشعر أثرى به مكتبة الأدب الجزائري الحديث، إلا أن تراكم أتعاب السنين العجاف على الشاعرـ وقد أشرف على الستين من العمر، وتوالي الأحداث المتسارعة وتأثره ببعض المشكلات الوطنية الطارئة ـكان لذلك كله انعكاساته السلبية على قواه الجسدية وقدراته النفسية والإبداعية، فجعله ذلك ـبعد مشاركته الفاعلة وعطائه السخي في ميدان الإبداع الشعري طوال السنوات الأولى للاستقلالـ يتثاقل في حركته بعض الشيء ويتناقص عطاؤه بعض النقصان، ثم لم يلبث أن ركن إلى شيء من السكون ومن السكوت فقلّ نتاجه، ولكنه لم يتوقف كليا عن النظم، وإنما ظل يكتب القصيدة وينظم المقطوعة بين الفينة والأخرى، بهذه المناسبة وبتلك، ولم ينقطع عن ذلك، وإنما ظل مربوطا بصنعته ولو بصلة ضعيفا إلى أن وافته المنية ـرحمه اللهـ في شهر جويلية 1979.

3. تحدث المؤلف عن المسيرة التعليمية للشاعر، فذكر أنه قطع تعلمه الرسمي بجامع الزيتونة بتونس بعامل المرض الذي حال بينه، وبين أن يكمل به سنوات التحصيل المقررة، إلا أنه استمر ينمي تكوينه، ويوسع معارفه، ويعمق مداركه على طريق التحصيل الذاتي من كتب

التراث، ومن روافد النهضة الفكرية والأدبية في العالم العربي الإسلامي، ومن عطاءات أعلام النهضة الوطنية وشيوخ الحركة الإصلاحية في الجزائر، واقتصر على ذكر اثنين من هؤلاء فقال «كعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي وغيرهما» ص (18).

4. يذكر المؤلف بالاسم اثنين من علماء الإصلاح بالجزائر ممن أفاد محمد العيد من علمهما: ابن باديس والإبراهيمي، وهو محق في ذلك، فقد كان الشاعر مرتبطا بصلة قوية بهذين العلمين، ولكنه مرتبط أيضا بثالثهما: الشيخ الطيب العقبي، ولكن المؤلف لم يذكر العقبي بالاسم، واكتفى بالقول «وغيرهما»، فلماذا لم يحدد بالضبط من يقصد بهذه الكلمة (وغيرهما) ؟ ومن يعني بها يا ترى ؟ والواقع أن هؤلاء الثلاثة (ابن باديس والإبراهيمي والعقبي) كانوا هم رواد النهضة الفكرية والإصلاحية والأدبية في الجزائر، وكانوا هم أساطين الحركة الوطنية الحضارية وكبار قادتها، وكان الشاعر قوي الصلة بهم الثلاثة، شديد التأثر بهم في حياتهم وبعد مماتهم، أكثر من صلته بغيرهم من إخوانهم المصلحين، ويمكن القول أن صلة الشاعر بالعقبي ثالث الجماعة كانت ـلعوامل عديدةـ أوثق وأشد، وبخاصة في المراحل الأولى من عمر النهضة، من صلته برفيقيه، فقد كان الشاعر يومئذ قد لازم العقبي وصاحبه فيما كان يقوم به في وقت مبكر من نشاطه الدعوي والإصلاحي والإعلامي عقب عودته إلى أرض الوطن من الحجاز وتمركزه بمدينة بسكرة، كما تتلمذ على يديه في المجالس العلمية التي كان ينهض بها في أحد مساجد المدينة (مسجد بكار) وأفاد منها.. فكانت هذه الصلة التعليمية قد ربطته بالعقبي أكثر من غيرها من الصلات، ولم يكن له بالإمامين ابن باديس والإبراهيمي شيء من ذلك، وكانا هما أيضا ينهضان بهذه الرسالة في هذه الفترة.

وكان العقبي يشارك ذلكما الإمامين ـإلى جانب ذلكـ في نشاطهما الفكري والأدبي في ميادين الكتابة والخطابة والصحافة، ولكنه كان يتميز عنهما بالموهبة الشعرية، فكان محمد العيد يرتبط بالعقبي من هذه الناحية برابطة الإبداع في مجال الشعر، ولم يكن له مع ذلكما الإمامين: ابن باديس والإبراهيمي شيء من ذلك.

وكان الكاتب قد أشار في الفصل الخامس الذي عقده للحديث عن الشخصيات في شعر محمد العيد إلى ما نظمه الشاعر من قصائد في الإشادة بجهود ابن باديس والإبراهيمي، وقد نظم مثل ذلك في ثالثهما العقبي، ولكن الكاتب لم يشر إلى ذلك (ص 81) ، وهذه إذن ظاهرة لافتة للنظر، فلم كان ذلك ؟

إن ما يمكن قوله في تفسير هذه الظاهرة أن إغفال المؤلف الحديث عن العقبي في كتابه ليس غريبا، ذلك لأن المؤلف ليس هو الأول ولا الوحيد في ذلك، وإنما سبقه إلى ذلك الكثيرون ممن درس الحركة الإصلاحية في الجزائر من الجزائريين أنفسهم، ومن غيرهم، ولعل الأشد غرابة من ذلك أن الشاعر نفسه يكاد في المراحل الأخيرة من حياته يقف من شيخه العقبي الموقف ذاته. فقد سبق القول أن محمد العيد نظم قصائد عديدة في ابن باديس والإبراهيمي في حياتهما، وكذلك فعل مع العقبي، إلا أنه استمر يقول الشعر في الإمامين بعد وفاتهما، إحياء لذكراهما وإشادة بمواقفهما وترحما عليهما، ولكنه لم يكتب كلمة واحدة عن العقبي بعد وفاته 1960. وإن هذا الموقف لغريب حقا، وبخاصة لدى من يقرأ ما كان الشاعر قد نظمه خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين في أستاذه ورفيق دربه العقبي من غرر وروائع، من مثل هذه القصائد : (1- الأقلام أسلاك المناجاة، 2 - باقة شعر، 3 - حزب مصلح، 4 – بشرى البراءة)[1].

1. ديوانه ص : 546، 395، 129، 169.

وإن هذه القصيدة الأخيرة هي آخر ما قاله الشاعر في العقبي، وقد نظمها 1939، ولم يقل فيه بعدها غيرها، لا في حياته ولا بعد وفاته طوال المدة التي تفصل بين تاريخ نظمها وتاريخ وفاة العقبي 1960، ولا بعد ذلك، وقد ظل الشاعر حيا ـرحمه اللهـ إلى سنة 1979، ومما جاء في مطلع تلك القصيدة مخاطبا إخوانه من المصلحين قوله :

أعلنوا البشرى فرادى وثبين جـــاء نصر الله والفتح المبين
اطرحوا عنكم تباريح الجوى وافرحوا فاليوم عيد المصلحين

ويقول فيها مخاطبا العقبي :

أيهـــا (العقبي) أقدم ظافـرا إنك اليوم إمـــام الظافـرين
لـم يزل طول المدى مستحكما بيننا حبل مـــن الود متيـن
لك إلـف ليس ينســـى إلفه و(خليل) لا يحب الآفليـــن
عنده مثلك بـــالصدق هوى ولـــه مثلك للشرق حنـين
كلمـــا مســك ضر مســه وطغى الدمع عليه والأنيـن[1]

وإن الذي يتأمل هذه الأبيات وينفعل بتجربة الشاعر فيها يدرك أن الصلة التي كانت تربط بين محمد العيد، وبين شيخه العقبي لم تكن عادية، كما تكون الصلة بين عالم من علماء الأمة وبين شاعر من شعرائها فحسب، وإنما كانت أكثر من ذلك وثوقا وأشد ارتباطا وأسمى مقاما، فقد كانت تلك الصلة كما تكون ما بين صديق حميم وصديق مماثل، بل كانت أعظم من ذلك لكونها كانت رابطة روحية عقلية ما بين تلميذ محب وفي، وبين شيخ كريم نصوح. وإن المرء ليحار في تفسير هذه المفارقة، والحال أن الصلة بين الشاعر وشيخه على النحو الذي تصوره

1. ديوانه، ص 171.

تلك الأبيات السابقة من المحبة والمودة والألفة والوفاء، وما جاء في غيرها من القصائد السالفة الذكر التي قالها الشاعر في العقبي، من مثل تلك المعاني لأعظم وأنبل وأكمل ..

وما يمكن أن يخلص إليه هذا النقاش في تعليل هذه الظاهرة أن أسبابها عديدة ،ولا يتسع صدر المقام لبسط القول فيها، وبحسبان هذه الكلمة أن تشير إلى أن السبب الأساسي فيها ليس هو النسيان، ولا الجفاء ولا التنكر ـمعاذ اللهـ وإنما العامل الرئيسي الذي يكمن وراء ذلك ، وينطوي وراء كل ما حيك ويحاك ماضيا وحاضرا من دسائس وأحابيل ومكائد ضد أمتنا، وضد رجالها إنما هو الاستدمار القديم والجديد، والاستكبار العالمي الظاهر والباطن.. وإن العامل الأول ما تزال بعض آثاره تسرح وتمرح بيننا في كثير من مرابعنا.. وأما العامل الثاني، فمن من القوم من لا يشاهد مكره وخبثه للوصول إلى أهدافه الشريرة ضدنا (أوطانا وأمة ..؟) ويقف صاحب الكتاب عند ظاهرة ما يسمى بسكوت محمد العيد أثناء الثورة ويستدل على ذلك بما ينقله عن المرحوم الدكتور صالح الخرفي : من أن ديوان الشاعر ليس فيه من الشعر الذي نظمه في الفترة المشار إليها إلا قصيدتان[1] والذي يحقق في الأمر يدرك أن النتاج الذي وصلنا مما قاله الشاعر أثناء الثورة خمسة أعمال[2]. وقد تكون أكثر من ذلك، ولكنها ـلسبب من الأسبابـ لم تصل إلينا، وقد تكون ضاعت في جملة ما ضاع من التراث المعنوي والمادي للشعب الجزائري في غمرة ملاحم ثورته ومعارك جهاده.

ويذكر المؤلف أن بديوان الشاعر مجموعة من القصائد «قالها أثناء الثورة وبعدها» (ص 24) ويحددها من ديوانه في الصفحات التالية

---

1. ينظر كتابه : "الشعر الجزائري الحديث"، ص 224 ـ **2.** ديوانه ص : 422، 425، 356، 535، 581.

(220- 238- 485 – 506)، والذي يحقق في ديوان الشاعر يرى أن هذه القصائد التي قيل عنها أن الشاعر قالها في عهد الثورة، كان قد نظم جميعها في عهد الاستقلال.

كما يذكر المؤلف أن محمد العيد ركّز في شعره على موضوع الجهاد ضد المحتلين (ص 31). وهذه حقيقة تاريخية شهد بها القاصي والداني، إلا أن المصنف استشهد على ذلك من شعر الشاعر بقصيدته (صوت جيش التحرير) التي نظمها في أعقاب الاستقلال مشيّدا ببطولات أبطال جيش التحرير الوطني، مهنئا شعبه المجاهد بعيد انتصاره على المعتدين[1].

إن نتاج الشاعر الذي قاله في الثورة دعوة وتمهيدا لها وإرهاصا بها، وحضا عليها كثير جدا، ويعود إلى مطلع الثلاثينات من القرن العشرين، أي ما قبل اندلاع ثورة أول نوفمبر المجيدة بحوالي ربع قرن من الزمن، وظل الشاعر طوال هذه المدة ينفخ بنتاج وافر روح الثورة في ضمير الشعب، ويحثّه على الجهاد، فاستجاب الشعب لنداءات رجالاته وفجّر ثورته وامتطى صهوتها، ومضى يكتب قصص المجد على صفحاتها، ويسطر ملاحم البطولة على دروبها، ويتحدى جرائم المعتدين في ساحات الفداء، فصبر وصابر وجاهد وانتصر...[2].

وقف المؤلف في فقرة الشخصيات الإسلامية بين يدي حضرة المصطفى رسول الإسلام محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، من خلال قصيدتين من مولدياته (48). وقد وصلنا من شعره في هذا الغرض تسع مولديات تدخل جميعها في إطار ما عرفه فن المديح النّبوي في الشعر الجزائري الحديث من تلك النقلة المشهودة في أعقاب ظهور حركة النهضة،

---

1. ديوانه، ص 247 ـ 2. ديوانه، ص : 45، 41، 49، 135، 185، 216، 339، 417، 422.

مما أتاح لشعراء هذه المرحلة أن يحرّروا مولدياتهم مما كانت ترسف فيه مثيلاتها من شعر أضرابهم في القرن التاسع عشر من معان غيبية غارقة في الغيبيات لا تكاد تلامس قضايا الواقع المتصلة بوضع الأمة من قريب أو من بعيد. وتغلب على لبوسها الفني جملة من السمات الشكلية المتكلفة، فجاءت بذلك أعمال هؤلاء الشعراء من هذه الناحية تفتقر أو تكاد إلى أبسط ما ينبني على أسسه العمل الأدبي من قيم فنية جمالية، في الوقت الذي أصبح فيه الموضوع الرئيسي في مولديات شعراء النهضة، ومحمد العيد من أبرزهم في هذا الغرض وفي غير من المضامين الشعرية الأخرى هو التعبير عن هموم الأمة ومعاناة الوطن وتصوير مشكلات الواقع والدعوة الحارة المخلصة إلى استلهام ما تقيض به وترشد إليه توجيهات السنة المطهرة والسيرة الشريفة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم من إقبال على العلم وتحمّل بالفضائل ودعوة للجهاد وذود عن القيم ومنافحة عن المقومات ودفاع عن الحقوق، فاستجاب الشعب للنداء ومضى يجود بالمهج، فأتت سنوات الجهاد أكلها وتم للشعب الجزائري ما أراد انعتاقا واستقلالا.

وتطرق المؤلف إلى صوفية محمد العيد، فأشار إلى ظاهرة جمعه في وقت واحد ما بين التصوف والإصلاح، ما بين (القشيرية والسلفية) في فكره وفي سلوكه (ص 54) مستشهدا على ذلك بقول الشاعر عن الإبراهيمي بأنه صوفي سلفي كما يشير إلى ذلك في هذا البيت :

ويكشف عن صوفية سلفية إلى وردها الصافي (القشيري)ألمعا[1]

ويتساءل الكاتب مستغربا عن هذه الثنائية ما بين التصوف والإصلاح عند الشاعر؟

---

1. ديوانه، ص 186.

إن الإجابة عن هذا التساؤل ستكون ميسورة، وسيزول ذلك الاستغراب من طريق من يعمق صلته بمعرفة ما تقوم عليه جوانب حياة الشاعر، وسيدرك حينئذ أن محمد العيد قد زاوج في حياته ما بين هذين التيارين، وكان لا يرى في ذلك ـوهو على حقـ تناقضا ولا اختلافا، وإنما كان يرى عن وعي وبصيرة أنهما طريقان متكاملان في الدين والحياة، ومن ثم كان في وقت واحد صوفيا سنيا وداعية مصلحا إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويتطرق المصنف في حديثه عن المضمون الاجتماعي في شعر محمد العيد (ص 55) إلى شيء من الإلماع إلى عناية الشاعر بالمرأة من دون أن يوضح موقفه من مكانتها ودورها في المجتمع ، ومن دون بيان ما مر به موقف محمد العيد نحو هذا الموضوع من اتزان واعتدال، وما مر به شعره في هذه المسألة من تطور في الرؤية وفي طرق المعالجة ما بين مرحلة وأخرى من حياته.

يتحدث المؤلف في الفصل الذي عقده عن الشخصيات في شعر محمد العيد (ص 82) عن عناية الشاعر بالأمير خالد من بين من خلّد آثارهم وأشاد بمواقفهم من أعلام الأمة، و لكنه أغفل الحديث عن قصائد الشاعر في الأمير عبد القادر، وكان حضوره في شعره أوضح من حضور حفيده الأمير خالد فيه، كما ألمع المؤلف إلى مكانة محمد عبده في شعر محمد العيد، ولم يوضح مكانة الأفغاني فيه وقد ورد ذكر هذين العلمين في قصيدة واحدة من شعر محمد العيد وهي (ختمت كتاب الله)[1].

ملاحظ سريعةـ ونجتزئ بهذا القدر من النقاش لما يستدرك على هذا الكتاب محاولين أن نسوق بقية ذلك في ملاحظ سريعة مرتبة حسب ورودها في الكتاب:

---

1. ديوانه، ص 156.

1. حاول المؤلف أن يوازن في بعض المواقف ما بين محمد العيد وأحد معاصريه من شعراء جيله بالجزائر الشيخ محمد السعيد الزاهري، فكتب اسمه خطأ (الزاهدي)، وقد تكرّر ذلك ثلاث مرات (ص: 52، 53).

2. وفي حديث المؤلف (ص: 77) عن شعر محمد العيد في قضايا الأمة اكتفى من ذلك بالإشارة إلى ما نظمه من شعر في فلسطين، من دون أن يشير إلى ما تميز به شعره في هذه القضية من تطور في الرؤية وفي الموقف ما بين مرحلة وأخرى، نتيجة تطور تجربة الشاعر من جهة، وتطور القضية الفلسطينية نفسها من جهة ثانية، إن المؤلف لم يشر إلى شيء من ذلك واكتفى بعرض بعض الأبيات من شعر الشاعر في فلسطين، ومن بين ما أورد في الموضوع أبياتا (ص : 80)، وذكر أنه نقلها من كتاب (محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث ص: 195) لأبي القاسم سعد الله، وأكد أنها غير موجودة بديوان الشعر، والواقع أنها به، من قصيدته (هيجت وجدي)[1].

3. يذكر المؤلف أن الإمام ابن باديس ولد عام 1883، والصواب 1889، ويمكن أن يكون هذا تصحيفا لما بين الرقمين (3 و 9) من تشابه في الشكل وفي الصفحة نفسها ورد تصحيف آخر في اسمي كاتبين اثنين هما: محمود قاسم صاحب كتاب *"ابن باديس الإمام الروحي لحرب التحرير الجزائرية"* فجاء اسمه خطأ (محمد قاسم)، وأما الكاتب الثاني وهو عبد المالك مرتاض صاحب كتاب *"نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر"*، فقد أصاب اسمه بعض التصحيف، فأصبح (عبد الملك مرتاض).

---

1. ديوانه، ص 300.

4. يذكر المؤلف أن الإبراهيمي ولد بمدينة بجاية (ص :86)، وقد يكون سار في ذلك على خطى الأستاذ حنا الفاخوري[1] والصواب أنه ولد ببلدة (أولاد إبراهيم ولاية سطيف بالشرق الجزائري).

5. أغفل الكاتب الحديث عن موضوع الأخلاق في شعر محمد العيد وهو غرض بارز فيه، كما أنه جزء أساسي من مضامين الشعر الإسلامي.

6. لم يعن الكاتب بإبراز فاعلية أهم مصادر الثقافة الإسلامية (القرآن والحديث) في شعر الشاعر معنى ومبنى، كما لم يشر إلى أثر النموذج الفني التراثي فيه، و لم يتطرق البتة إلى الجانب الفني في شعر الشاعر بوجه عام.

7. لم يفد المؤلف الإفادة المطلوبة في تناوله للموضوعات المدروسة في كتابه، من مقومات المنهج التاريخي الذي يحسن أن ترتب على أساسه المادة المدروسة لكل وحدة موضوعية في الكتاب ترتيبا تاريخيا، ويتم في ضوء ذلك تحليلها ومعالجتها للوقوف على ملامح التطور ورصد وجوه الاتفاق ووجوه الافتراق فيها.

الخلاصة : وبعد فإن هذه الملاحظات -على أهميتها- لا تنال من القيمة العلمية لهذا العمل الذي يعد إسهاما طيبا على طريق ما تصبو إليه أمتنا من توطيد عرى الأخوة وأواصر التعاون والتكاتف بين جميع أبنائها وفي جميع ديارهم، مغربا ومشرقا، وبينهم وبين أنصار الحق والعدل والسلم من أبناء الإنسانية جمعاء. كما أن هذا التواصل الفكري والاجتماعي كان وما يزال من أهم العوامل في توثيق عرى الصلات بين مختلف الأمم. وقد أخذ هذا التقارب في العصر الحاضر بعدا أكثر واقعية وأعظم أهمية بتأثير التقدم العلمي والثورة المعلوماتية، هذه العوامل التي أصبحت الهاجس

---

1. ينظر كتابه : *"تاريخ الأدب في المغرب العربي"* ، ص 654 وما بعدها، دار الجيل بيروت 1417/ 1996

الأكبر الذي يدفع الأمم إلى تقريب المسافات وتوحيد الجهود وتنسيق المواقف فيما بينها، محافظة على قدراتها وذودا عن تطلعاتها ودفاعا عن خياراتها، مما قد يستهدفها من تحديات ظاهرة العولمة التي أصبحت في بعض وجوهها أداة من أدوات الصراع والتسلط والسيطرة في أيدي بعض دوائر الاستكبار العالمي التي تحاول فرض هيمنتها على الدول الضعيفة الخانعة المتقاعسة المنطوية على نفسها المتواكلة على غيرها.

وإذا ما ولّى المرء وجهه شطر بلدان عالمنا العربي الإسلامي بحثا عما تكون أمتنا قد أعدت من الأسباب والوسائل طوال هذه المدة التي تربو عن قرن ونصف من عمر نهضتها، إن من يفعل ذلك سيفاجأ أن أمتنا لم تستطع بعد، أن تقترب بالقدر المطلوب مما تتطلبه غاياتها المنشودة من توفير العوامل الموضوعية الفاعلة، المعنوية منها والمادية، تلك التي لا تستطيع أن تجود بها إلا القلوب المؤمنة والنفوس الزكية، والعقول المستنيرة، والهمم العالية، والإرادات الحرة ..

وإن الثقة في عون الله كبيرة والرجاء في توفيقه أكبر، أن تستعيد أمتنا عافيتها ويعود لها وعيها فتقبل على ذاتها، فتغيّر ما بنفسها، فيغير الله ما بأنفس أبنائها ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوم حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1] .

وحينئذ ستنقشع ـ بإذن الله ـ غيوم الظلم والظلام عن ربوع بلاد الإسلام أرضا وسماء، وينجلي ليل أمتنا، وتنبثق أنوار فجر غدها الموعود، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤمِنِيْنَ﴾[2]، والحمد لله ربّ العالمين ..

---

1. سورة الرعد، الآية 11 ـ 2. سورة الروم، الآية 47.